الغابة السوداء

info@darak-egy.com
02 24832669-010 27251915
51 ب شارع النزهة – من امتداد رمسيس – القاهرة.
جميع حقوق الطبع والتوزيع محفوظة للناشر.

الغابة السوداء

اسم النص الأصلي: the man whom the trees loved

اسم المؤلف: ألجرنون بلاكوود

ترجمة: بسمة الخولي

تصميم الغلاف: أسامة علام

تدقيق لغوي: سارة صلاح

رقم الإيداع: 2019/19999

الترقيم الدولي: 978-977-6634-26-8

الطبعة الأولى: 2019

ألجرنون بلاكوود

الغابة السوداء

روايـة

ترجمة

بسمة الخولي

دارك
للنشر والتوزيع

”الجسد البشري ليس بالضرورة، الوعاء الوحيد للروح.“

ألجرنون بلاكوود

الفصل الأول

كان يرسم كما لو أن روحًا من زمان آخر، من عالم آخر قد تلبسته؛ كما لو كانت أصابعه حول الفرشاة لا تنتمي لباقي جسده. لكنه عكف على رسم الأشجار، والأشجار فقط. كل ورقة بكل فرع كان لها شكلها الخاص اسفل شعيرات فرشاته، كل خط بالجذع، ثقب باللحاء. لم تكن أشجاره على قماش اللوحات حقيقية فقط، بل كانت مختلفة تمام الاختلاف عن بعضها البعض، لكل منها شخصية مستقله، روحًا، ووجود.

ساندرسون كان يعرف ما يفعله ويفعله بإتقان، وبحب عارم. لم يتلق في حياته درس للرسم، لم يكن من أولئك الأشخاص المداومين على حضور المعارض أو الاختلاط بالفنانين الآخرين في المجتمع حوله، كان يعرف أشجاره، تفاصيلها وروحها لكنه لم يكن يعرف أيَّ شيءٍ آخر.

لطالما حاول ساندرسون التوسع في مجال رسمه، لكن كل شيء آخر عدا الأشجار جاء باهتًا، مشوهًا حتى يكاد يكون طفوليًا. الزهور والمشاهد الطبيعية من ماء وسماء ظهرت كعجين من الألوان بلا رأس أو ذيل، لم يكن للبيوت شكل أو معنى ولا للجسور أو العربات أو حتى السحب. ثم هناك الأشخاص، البشر. أولئك كان ساندرسون عاجزًا تمامَ العجز عن الاقتراب حتى من شكل ملامحهم أو تفاصيل أجسادهم.

فجاءوا كالظلال، مجرد ضربات بالفرشاة على اللوحة.

لم يكن ساندرسون يرى سوى الأشجار والأشجار فقط، وبعد أن عرف الناس هذا عنه حتى كفوا عن طلب صور شخصية لهم واكتفوا بطلب لوحة لشجرتهم المفضلة، السرو الذي أحبوه أكثر من سواه، الزيزفون الذي حمل ذكرى مميزة أو قبلة أولى تحت أوراقه الوفيرة. وفي هذا كان ساندرسون بارعًا، بارعًا حتى النخاع.

" بلى، حين يتعلق الأمر بالأشجار، يعرف ساندرسون ما يفعله".. هكذا فكَّر ديفيد باتسي وهو يحدِّق باللوحة الضخمة أعلى مكتبه راضيًا، شاعرًا بأن العشرين جنيهًا التي صرفها كانت - على عكس ما قالته زوجته - ثمنًا بخسًا في مقابل لوحة لا نظير لها كهذه التي اشتراها. داخل الإطار تطلع ديفيد إلى شجرة الأرز، شجرته، الشجرة التي طلب رسمها بالذات. تابع تفاصيل الورق والأفرع بشغف، فكر أن بوسعه إن اقترب قليلًا رؤية الغصون تتمايل بفعل النسيم، كان بإمكانه سماع حفيف الأوراق وشم رائحة الندى العالق بينها، الطين أسفل الجذع، المشبع بالماء. كان بإمكانه رؤية الخطوط الصغيرة في اللحاء الخارجي، ورؤية قرون الاستشعار للنمل الدقيق الذي يجوبها باحثًا عن مأوى أو طعام. بإمكانه الشعور بالشجرة تكبر وتتمدد داخل اللوحة.

لا، لم يضع العشرين جنيهًا في لوحة لا قيمة لها، لم يصرف المال هباءً كما ظنت زوجته. تلك اللوحة أمامه استحقت كلَّ قرشٍ وكلَّ لحظة انتظار.

تنهد ديفيد وهو يجول ببعينه هائمًا في لوحته، عقله كان مضطربًا رغم سعادته، مضطربًا إلى حد الاكتئاب. كان جنتلمان أوروبي؛ لذا لم يتوقع منه أحد أن يحب الطبيعة، لم يكن هذا اعتياديًّا في المجتمع المحيط به، ربما المال،

العربات، السيجار أو الأخبار الجديدة لكن ليس الطبيعة، وبالتأكيد ليست الأشجار على قائمة الهوايات لأمثاله من رجال أوروبا المحترمين. داخله كان يعرف أن أصوله الأسيوية لها علاقة بشدة حبه للأشجار، تلك السنوات الأولى من حياته التي قضاها في الشرق، يعتني بالأشجار، يقلمها، يراقبها ويحدثها، اعتاد اتخاذ الغابات صديقًا وقلَّمَا كان يتعامل مع آخرين في سنِّه، اكتفى بالأشجار مؤنسًا لوحشته واكتفى بالبقاء بينها، ليس للأشجار طبع الخيانة، ليست لهم دوافع خفية ولا رغبة في الاستغلال، بل العكس؛ لذا وجد سعادته وربما دق قلبه للمرة الأولى أيضًا بسبب الأشجار، صار يألفها ويعرفها ويشعر بالراحة بين غصونها وقرب جذوعها الضاربة في الأرض.

حاول كثيرًا إخفاء شغفه بالأشجار عن كل مَن يعرف، عن المجتمع في أوروبا بالكامل، وأصدقاؤه من الولايات أيضًا، وإلى حدٍّ كبيرٍ عن زوجته نفسها. إلا أنها كانت تعرف، تعرف ذلك الولع الغريب، في البداية لم يشكل هذا لها مشكلة حقيقية، كونها امرأة فقد انجذبت للطبيعة والجمال تلقائيًا. لكن زيارتهما للهند هي ما حول شغفها هي الأخرى بالطبيعة إلى الخوف والتوجس، كان دايفيد غريب الأطوار حين أقاموا قُربَ غابة صغيرة هناك، يخرج بالصباح ليهيم على وجهه بين الأشجار حتى يختفي تمامًا عن نظرها، تظل في انتظاره بالبيت حتى يُعييها القلق، ويبدأ عقلها برسم كافة الحوادث التي يمكن أن تكون قد وقعت لزوجها هناك داخل الغابة، لكنه ما ينفك يعود، سعيدًا وهادئًا، شاردًا ربما لكنه بخيرٍ.

أصبحَتْ زوجته تخشى عليه من الأشجار ومن شغفه بها، حاولت ألا تصرِّح بذلك علانية لكنه كان يعرف كلَّما فتح موضوعًا متعلقًا بالأشجار، تلك

النظرة بعينيها إليه كلما بدأ بالكلام عن شغفه، لم تكن نظرة ملل أو ضيق بل كانت نظرة رعب.

السيدة باتسي كانت ابنةً لرجل دينٍ، سيد إنجيلي محترم شديد الورع والتقوى؛ لذا كانت تجد سعادتها في مشاركة زوجها أفراحه وأحزانه، في العمل من أجل استقرار بيتها، كانت طيعة إلى الحد الذي طغى على شخصيتها الخاصة أحيانًا، ليست كثيرة الاعتراض، لم تكن تشارك في الجدال أيًّا كان موضوعه، كانت هانئة طالما زوجها هانئ وسعيد. وكانت راضية طالما تقوم بواجبها تمامًا كما يقول الكتاب المقدس بلا تقصير.

لكن شيئًا واحدًا ظلَّ يقف في طريق التفاهم الكامل بينها وبين زوجها، شيء واحد كان يعكر صفاءها وهو أمر الأشجار تلك وهوس زوجها بهم؛ ظلَّ هذا الموضوع بالذات كحائط خفي بينهما، حاولت - ويشهد الرب أنها حاولت - أن تتغلب على قلقها ومقتها لتعلق زوجها بالأشجار، كي تصبح زوجة مسيحية مثالية، لكنها لم تتمكن من التغلب على مشاعرها الخاصة، ليس هذه المرة. زوجها بالطبع لم يوبخها أو يجبرها على حب الأشجار مثله، كان دايفيد محترمًا ووقورًا لكنها لم تكن راضية عن نفسها.

تململ دايفيد في وقفته قليلًا، وهي تقف خلفه، لم يلتفت لينظر لها لكنه كان يعلم بينما هي الأخرى تحدق في اللوحة أعلى مكتبه بأن مقتها لم يكن - كما قالت هي- بسبب المبلغ الباهظ الذي دفعه لقاء اللوحة، بل؛ لأن شجرة الأرز المرسومة داخل الإطار الخشبي أمامها لم تنشر فروعها على القماش فقط، بل امتدت الفروع أكبر، خارج الإطار، إلى تلك الفجوة بينها وبين زوجها لتزيد اتساعها، لتحجبها أكثر وأكثر عن الحياة المثالية التي رغبت فيها.

لم تتعرف السيدة باتسي على ساندرسون بصورة شخصية، بالنسبة لها كان الرجل شخصية غامضة تبيع لوحات عن الأشجار لمشترين غريبي الأطوار – مثل زوجها – لا أكثر مقابل الكثير من المال، أكثر مما تستحق اللوحات. لم يكن لديها فكرة بالطبع وقتها أن ساندرسون لم يكن يرسم من أجل المال على الإطلاق، وأن موضوعاته الغريبة عن الأشجار والأشجار فقط لم تلقَّ رواجًا بين الأوساط الأرستقراطية القادرة على دفع المال مقابل لوحات مرسومة. كان زبائنه قلائل والشيكات التي تأتيه أو الأموال التي تُدفع نقدًا كانت قليلة، وعلى فترات متباعدة جدًّا، أحيانًا من محبي اقتناء لوحات شديدة الجودة عن الأشجار والطبيعة، أحيانًا من رجال أو نساء راغبين في رسم شجرتهم المفضلة؛ لأنها تحمل ذكرى مهمة، أو بعض الفضوليين الذين يملكون فائضًا من المال لصرفه. لكن عدا عن ذلك لم يكن لساندرسونزبائن. وهو لم يكن يبحث أصلًا عن زبائن. اكتفى بأولئك القادمين من أجل لوحات مميزة، امتنع عن بيع لوحاته الغريبة التي كان يرسمها من فترة إلى أخرى من أجل متعته الخاصة، أبقى تلك اللوحات لنفسه مهما عُرض عليه في مقابلها.

لم يبحث الرجل عن المال لكنه كان شديد الحساسية تجاه السخرية منه أو من لوحاته أو من اختياره لرسم الأشجار عدا سواها، كانت السخرية أو التهكم منه أو منهم هي الشيء الوحيد الذي قد يدفعه للغضب وربما رمي الساخر خارج عتبه بيته ورفض مقابلته مرة أخرى.

"مبهر ما تستطيع فعله بلوحاتك سيد ساندرسون. "قالتها امرأة له يومًا في أحد التجمعات"، قدرتك على جعل شجرة سرو واحدة مختلفة عن جميع

الأشجار الأخرى، على الرغم من أن كافة الشجر متشابهة، حتى يكاد يكون متطابق!." رغم أن السيدة قصدت المدح بجملتها هذه، إلا أن وجه الرسام المحب للأشجار انقبض فورًا، احمرت أذناه وانعقد حاجبيه ثم التفت لها رادًا بنبرة باردة:

- شيء مبهر وغريب فعلًا سيدتي .

نظر للوحته المعلقة ثم تابع:

- يكاد يكون بنفس غرابة اختيارك لزوجك، رغم أن جميع الرجال متشابهين حد التطابق.

كان يعرف أنها زوجة لرجل ثري، الرجل كان يتعامل معه شخصيًّا وعرفانها تزوجته من أجل ماله بالذات؛ لذا وفي تلك اللحظة حين احمرت وجنتاها ونظرت له شذرًا ثم التفتت لترحل، عرف أن ملحوظته قد قطعت علاقته بتلك العائلة للأبد. لم يهتم كثيرًا، لأنه لم يتحمل الإهانة كثيرًا.

كان يعرف أن عصبيته منتقدة، وكثيرون نصحوه بتقبل الرأي الآخر، لكنه أخبرهم بتلقائية وبدون تجميل للحقائق أن الأشجار هوايته، حبه، شغف يرويه بلوحاته. وأن كما أن عليه احترام شغف الآخرين عليهم احترامه، بعض الرجال يعشقون الموسيقى، أو الدين، أو ربما النساء. هو يعشق الأشجار. وليس لأن ذلك شغفًا مختلفًا عليهم توقع أن يتحمل أي استهزاء به.

- أنا مدركة لعدم أحقيتي في الاعتراض عزيزي.

قالتها السيدة باتسي وهي تعقد ذراعيها أمام صدرها في حركة دفاع غريزية عن نفسها، ضد لا شيء محدد رغم أن عينيها ظلتا تتابعان الأوراق والبراعم في اللوحة:

- لأنك شديد السعادة والفخر بتلك اللوحة، لا يحق لي الاعتراض. لكن الثمن الذي دفعته، الآن بالذات رغم حاجتنا إلى المال. الثمن الذي دفعته مقابل لوحة لشجرة أرز.

قاطعها ديفيد دون النظر لوجهها:

- لأنها تذكرني بيوم مهم من حياتي يا صوفيا.

ثم التفت ليرمقها بفخرٍ قبل أن يعود ليحدق باللوحة:

- بأحد الأيام الربيعية الرائعة في شرق إنجلترا، بهمس الطيور السابحة في السماء الزرقاء لبعضها البعض بينما ينشر النسيم العابر عطر النرجس والليليك، وشابة يافعة ذات جمال يخطف الأنفاس تنتظر أسفل شجرة الأرز في ثوب قطني أبيض طويل مطعم بالدانتيل والحرير.

- لم أكن أنتظر..

قاطعته صوفيا ووجنتاها تتوردان:

- كنت أجمع أقماع الصنوبر لإشعال النار بالمدفأة..

- أقماع الصنوبر لا تنمو على أشجار الأرز حبيبتي، وفي أيام صبانا لم تكن هناك حاجة لإشعال النار وسط الربيع في شهر يونيو.

- وعلى أي حال ليست هذه ذات الشجرة..

قاطعت مرة أخرى ووجهها شديد الاحمرار فابتسم ديفيد ليعقب على كلماتها:

- تلك الشجرة بنهار الربيع وذلك اليوم جعلني أقع مغرمًا بكافة أشجار

الأرز.. من أجل تلك الشجرة، ولأنها تذكرني بأنك مازلتِ تلك الفتاة الشابة الحالمة في الفستان الأبيض التي قابلتها يومها.

انتظرت صوفيا ريثما تهدأ ضربات قلبها ثم تحركت لتقف جوار زوجها، محركة نظرها من الشجرة باللوحة إلى الشجرة الوحيدة القابعة في الأسفل بفروع ضخمة، بجذع قوي يفصلها عما سواها. رمادي كالشيخوخة، مائل كرأس طفلٍ فضُوليٍّ، كانت كمثيلتها في اللوحة، ضخمة وقديمة ووحيدة أمام بيتهما في هامبشاير.

- لست مستاءة من المبلغ ديفيد، ليس كما تتوقع. لكنني فقط أرى أن اللوحة كانت لتستحقه فعلًا لو كانت لذات شجرة الأرز التي التقينا تحت فروعها. الشجرة الأصلية.

قالتها صوفيا وهي تنظر لزوجها الذي أجاب فورًا:

- لم تعد الشجرة الأصلية موجودة صوفيا، اقتلعوها منذ سنوات مضت - مررت من المكان ذاته العام الماضي ولم أرَها- كل شيء بالمكان الأصلي تغيَّر.. كل شيء.

لم تعقب صوفيا بل اقتربت من اللوحة، ووقفت هناك دون حركة لثوانٍ ثم لمست الإطار بحذر وكأنها تتوقع أن يتم ابتلاعها إلى الداخل في أي لحظة، أزاحت إصبعها ثم أمسكت بمنديلها الحريري وبدأت تحركه بنعومة على الإطار بالكامل وكأنها تحاول إزالة أيِّ ذرة تراب عالقة هناك، حول الإطار كله حتى إنها اضطرت إلى الوقوف على أطراف أصابعها أحيانًا. راقبها ديفيد لثوانٍ ثم تابع بصوته الحالم نفسه: